الأول ، واقترحت لتسلية الجماعة أن يقص كل منهم قصة ، وأن يختتم واحد منهم بانشاد أنشودة ؛ فوافق الجميع متحمسين ؛ واستثنى الجماعة من أيام الأسبوع اثنين ، يوم الجمعة ، ويوم السبت ، وخصصا للراحة والتجمل والصلاة ؛ وعلى ذلك أصبحت أيام القصص عشرة خلال اسبوعين ، وفى كل يوم تقص عشر قصص ، فالمجموع مائة قصة ؛ هى محتويات مجموعة بوكاشيو الشهيرة ، وهى التى يسميها « ديكامرونى » Decamerone وهى كلة مؤلفة من مقطوعين يونانيين ومعناها « الأيام العشرة »

هذا هو التمهيد الذى يقدم به بوكاشيو لمجموعته ، وهو تمهيد يمتاز ببساطته وطرافته ، ويدلى بكثير من روح العصر ؛ لقد كان المجتمع الذى كتب فيه بوكاشيو قصصه يعيش من يومه إلى غده ؛ وكان بوكاشيو نفسه يجوز هذه الحياة ؛ وكان يملأ هذا الفراغ المتصدع بالتجوال فى عوالم الخيال الممتع ، وكان يرى أن يقدم ثمرة هذا التجوال إلى إخوانه فى المجتمع ، أولئك الذين يرون أشباح الفناء ماثلة فى كل آونة وكل مكان

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

أدبنا الجديد

وحظه من الاتصال بثقافتنا التقليدية

للأستاذ اسماعيل مظهر

ركدت الحركة الأدبية فى مصر ركوداً أشبه بأن يكون سباتاً عميقاً . ولقد حدث هذا الركود إثر نشاط عظيم فى الانتاج والنقد والترجمة ، وإثر شعور قوى بأن الشباب أحق بأن يتزعموا حركة الأدب ، وأن ينتزعوا الزعامة الأدبية من أدباء الشيوخ . ولقد اصطبغت حركة الشباب بألوان مختلفة ، مهما يكن فيها من مظاهر التطرف حيناً ، ومن مظاهر التفريط حيناً آخر ، فانها دلت فى بعض أطوارها على حيوية قوية ، وطموح ، وتطلع إلى إحياء ما قيل إنه أدب جديد . وما من شك فى أن حدوث هذا الركود عقيب ما أبدى الشباب من نشاط ، ظاهرة جديرة بالبحث ، خليقة بأن تدرس من نواح مختلفة ، وأن تحلل فى ضوء الحقائق التى أحاطت بها ، والحقائق التى أحاطت بأدبنا الحديث على وجه عام . ذلك بأن شباباً يعجز عن تكوين فكرة جديدة فى الأدب ، أو تقعد همته عن خلق تصور جديد فى الفن ، انما هو شباب ينذرنا من الآن بأن أدبنا سوف يبقى جيلاً آخر فى داخل الحدود التى رسمها للأدب أولئك الذين سماهم الشباب أدباء الشيوخ

وإنى لآمل ألا يتبادر إلى الشيوخ من أدبائنا أنى أعنى بذلك أن أدبهم لم يؤد لأهل هذا الجيل شيئاً جديداً ؛ أو أن وقوف الأدب عند الحد الذى بلغوا اليه دليل على جمود الأدب ، وانما أعنى بذلك أن وقوف حركة الأدب ، وركود التصور الفنى عند حد بلغه شيوخنا من غير أن يعقب عليهم الشباب بأدب جديد له صبغة خاصة وفن له تصورات ذات طابع مستقل عن طابع الفن الذى عرفناه ، دليل قاطع على أحد أمرين : إما أن الشباب عاجز عن الابتكار ، وإما أن الأدب الذى روج له الشيوخ أدب غير منتج ؛ وكلا الأمرين يحفزنا إلى أن نبحث الأمر من وجهيه : علاقة أدب الجيل الجديد بأدب الجيل السابق ، وعلاقة الأدبين بالنظرية التى تروج لها : نظرية أن الأدب الثابت والفن الأصيل انما يجب أن يتجه دائماً إلى إحكام الرابطة بين الصور التى يتشكل فيها ، والصور التى قامت عليها ثقافتنا التقليدية

ولقد عبرت عما أعنى بالثقافة التقليدية فى المقالات التى نشرتها لى (الرسالة) بعنوان « التعليم والحالة الاجتماعية فى مصر » ، وصورت على قدر ما أتيح لى مجمل ما أدركت من هذه النظرية . ولقد عرفت الثقافة التقليدية بأنها مجموعة الحالات والملابسات التى ينشأ شعب من الشعوب مكتنفاً بها من حيث طبيعة الأرض والاقليم ، وما يتطلب ذلك من العكوف على فن خاص من فنون الحياة ؛ وبمعنى أوسع تدل الثقافة التقليدية على العناصر التى ورثها شعب من الشعوب على مدى الزمان من طريق التأثر الطبيعى بالبيئة والمحيط ، كما تدل على مجمل ما ثبت فى عقليته باللقاح السلالى من عادات وأساطير وعلوم وآداب نشأت بنشأته فى مرباه الأصيل . وعلى الجملة نقول إن الثقافة التقليدية لشعب من الشعوب انما هى فى الواقع جماع ما يرث من صفات حيوية ، ومعتقدات ، وفنون عن أسلافه الأولين

ولا شـك عندى فى أن ما يبدو على أدبنا الحديث، أعن الشيوخ صدر أم عن الشباب، انما يرجع الى ضعف علاقتنا بثقافتنا التقليدية. فان أكثر الذين اتصلوا بهذه الثقافة لم يتصلوا بها اتصال تفهم لروحها ومعناها وأغراضها ومثلها العليا، وإنما اتصلوا بها اتصال استيعاب لظاهرها دون حقيقتها. وهذا أمر لا سبيل إلى نكرانه. كذلك نلحظ أن هؤلاء، على أنهم لم يتصلوا بثقافتنا التقليدية إلا اتصالا ظاهرياً، فانهم عجزوا عن أن يدركوا روح العصر الذى يعيشون فيه ليكون ذلك عوناً لهم على تلوين ما استوعبوا من آثار ثقافتهم القديمة بلون يرضاه أهل هذا الزمن وتقره البيئة التى خلقت من حولها خضوعاً لتطورات العصر نفسه. وهذا أيضاً أمر لا سبيل الى الشك فيه. أضف إلى ذلك أن الذين لم يتصلوا بثقافتهم التقليدية، وعكفوا على الأخذ عن الثقافة الأوربية وحدها، قد عجزوا عن أن يخلقوا مما أخذوا عن أوربا أدباً جديداً له طابع معين، بحيث يختلف عن الأدب الأوربى على مقتضى ما فى الثقافة من روح ومعنوية، ويختلف أيضاً عن الثقافة القديمة على مقتضى ما تتطلب روح العصر الحديث من فنون وتصورات وأخيلة. ذلك بأن دعوتنا الى الثقافة التقليدية لا ينبغى أن يدرك منها أننا نريد الرجوع الى القديم بذاته، وأن نحييه ثانية بصفاته التى عرفناها والتى واءمت العصر الذى خلقت فيه، وإنما نعنى بها أن الثقافة التقليدية يجب أن تكون الأصل الذى يلقح بثمار الآداب الحديثة، حتى تقوى على هضم ما يصل الينا عن أوربا هضما يمكننا من تكييف الآداب الدخيلة تكييفاً يلائم وراثاتنا العديدة. وبعبارة أخرى نقول إن ثقافتنا القديمة هى المزدرع الذى نلقى فيه بذور الأدب الحديث، فما عاش منه فيه فذلك ما نكون قد هضمنا ومثلناه، ومنه نخرج الأدب الجديد الملائم لطبائعنا وميولها وتصوراتنا وأخيلتنا، وما مات فى ذلك المزدرع من الآداب الحديثة فذلك ما يبعد عن طبعنا ولا حاجة لنا به. وعلى الجملة نقول إن ثقافتنا التقليدية هى بمثابة حقل التجارب الذى يمتحن فيه المجربون قوة البذور الدخيلة على الأنبات والحياة. وما السبب الصحيح فى كثرة ما نقع عليه فى أدبنا المنقول من الآثار الميتة إلا أننا لم نمتحن فيما نقلنا قوة الاستمرار والبقاء فى بيئة جديدة. تلك البيئة التى يجب أن تكون من عناصر تستمد من ثقافتنا التقليدية أول شىء

قد ينكر علينا بعض الذين يودون إرضاء ناحية العزة فى أنفسهم شيئاً مما تقرر فى هذا البحث؛ غير أنى أريد لهؤلاء أن يكونوا أكثر تشاؤماً مما هم، ذلك بأن بيئاتنا الأدبية قد تولاها منذ أول نشأتها روح رمت بها فى أحضان التشاؤم المرير، ولم يسعدها الزمن بيوم واحد تفاءلت فيه بحسن المستقبل. ذلك بأن معسكرى الأدب والتفكير لم يتصل أحدهما بالآخر مطلق اتصال خلال كل ذلك الزمن الذى نفخر فيه بأننا كونا نهضة جديدة. فالناحية التى اتصلت بالثقافة القديمة متهمة فى عين الناحية الأخرى بالجمود عن ادراك ما فى الآداب الحديثة من تصورات، والناحية التى لم تتصل بالثقافة التقليدية متهمة فى عين الناحية الأخرى بالزيغ عن التراث القديم. ومن ثم كان التشاؤم. وما لهذا التشاؤم من سبب إلا أننا لم ندرك السر فى عدم اتصال الناحيتين

وإنما أدعو هؤلاء لأن يكونوا أكثر تشاؤماً لأنهم بذلك يكونون أدنى الى تفهم الحقيقة كما هى واقعة. ولأضرب لهم مثلا بشرقيين اتصلا بالثقافة الأوربية، وأوربيين اتصلوا بالثقافة الشرقية؛ وبالأحرى بالمستأربين منا، والمستشرقين منهم. لنسأل أى الفريقين استطاع أن يهضم من آداب الآخر أكبر قسط يمكن هضمه؟

ولنبدأ أولاً بالمستأربين منا ولنتخذ ناحية معينة من نواحى الأدب موضوعاً لبحثنا، كالقصة أو التاريخ مثلاً. أما القصة فقد يقال بأن آدابنا القديمة لم تعن بها العناية الكافية، وأننا لذلك إنما ننقل عن أوروبا أدباً جديداً لا أصل له فى ثقافتنا؛ وإذن ينبغى لنا أن نتخذ التاريخ محكاً للحكم، وقد ظهر من أوائلنا من كتب فيه أمتع المؤلفات، سواء أفى التاريخ العام، أم فى تاريخ الأدب. وأنت تعلم فوق ذلك أن فن كتابة التاريخ ونقد الشواهد التاريخية ومقاييس الحكم فيها وروح التفقه التاريخى، إنما هى خلق جديد من مخلوقات القرن التاسع عشر فى أوروبا؛ وتعلم فوق ذلك أننا اتصلنا بهذا الوجه من الأدب فى مدارسنا وجامعاتنا، وتعلم فوق هذا وذاك أن الأوربيين قد كتبوا تاريخنا على أوجه انتحيت فيها نظريات اجتماعية أو اقتصادية أو جنسية، وبخاصة تاريخ العرب والاسلام. وأنت بعد هذا كله تعلم علم اليقين أن كثيراً ممن أرخ للعرب أو الاسلام قد أخطأوا التقدير أو شطوا فى الأحكام، أو أن النظرية التى بنوا عليها تواريخهم لم توائمهم بالحقائق التى تلبس ما كتبوا ثوب الاقناع. فهل استطعنا الانتفاع

بهذا الوجه الجديد من أوجه الأدب ؟ هل ألفنا فى تاريخنا كتباً قامت على نظريات جديدة تتصل بالثقافة الحديثة أو بفروع منها بحيث تبين لنا عن الاتجاهات الفكرية والتصويرية التى اختفت وراء الحوادث الظاهرة ، وصححنا بذلك الأخطاء التى وصلها بعض الكتاب بماضينا ؟ كلا وكنى

ولنعد بعد ذلك الى المستشرقين منهم ، ونمتحن فى ضوء العقل والاتزان الآثار التى صدرت عنهم متصلة بثقافتنا القديمة ، ونعنى بالمستشرقين كل من اتصل بالشرق سواء أكان ذلك من طريق اللغة أم من طريق الدرس باللغات التى نقلت إليها آثارنا القديمة . أما إذا اتجهنا ذلك الاتجاه فان أول ما نلحظ فى الآثار التى صدرت عنهم عكوفهم فيها على أسلوب البحث العلمى وهو أسلوب يتلقونه فى معاهدهم وتلازمهم آثاره بعد ذلك . فهم يكتبون التاريخ بأسلوب البحث العلمى ، ويكتبون الأدب بأسلوب البحث العلمى ، ويتكلمون بأسلوب البحث العلمى ؛ وهو أسلوب أخص ما امتازت به ثقافتهم التقليدية . ثم تلحظ بعد ذلك أثر البحث الأكاديمى من حيث الاكباب على الفهم العميق لأشياء قد تلوح أول شىء تافهة غير جديرة بالبحث ولا هى خليقة بالدرس ، ومقارنتها بمجموع الحقائق التى تتعلق بها . وهو أسلوب من البحث عاش بين جدران الأزهر أزماناً ، وكاد الأزهر يفقده الآن مع الأسف ، مع ما فقدنا من تقاليدنا القديمة . وتشهد بعد ذلك فى آثارهم ما تضفى الأناة والصبر والاستقلال فى الرأى على الآثار العلمية من مظاهر الروعة والجلال . هذا الى المظهر العام الذى يلابس ما يؤمنون من جماع هذه الأشياء . وبذلك استطاع هؤلاء المستشرقون أن يهضموا ما أخذوا عن الشرق ليخرج من بين أيديهم لابساً صورة أوربية رسيسة . ولقد يخطئون ، ولقد يشط أكثرهم أكبر الشطط ، ولكنه خطأ واشتطاط تلابسه روح البحث والدرس ، ويحوطه الأسلوب الأكاديمى بروعة البحوث العلمية

وبعد . فما هو السبب فى الفرقة بين مستأرب عاجز عن كتابة تاريخه بروح جديدة ، ومستشرق يكتب تاريخ غيره بروح مستمدة من طبعه ؟ السبب أن الأول بعيد عن ثقافته التقليدية التى يتخذ منها مادة للدرس والبحث والاستنتاج والصياغة ، وأن الثانى يكتب تاريخ غيره مستهدياً بفطرة مستمدة من ثقافته التقليدية . وإنى لواثق أن هذه المقارنة سوف تجعل الذين يجنحون إلى إرضاء ناحية العزة والأنفة فى أنفسهم يخففون شيئاً من غلوائهم ، وتنزع بالذين لا يتشاءمون من أدبنا الحديث بقدر يجعلهم يرون الحقائق كما هى واقعة ، إلى درجة من التشاؤم تنير أمامهم السبيل

* * *

لقد بدأت نهضتنا الأدبية الحديثة باندفاع نحو الآداب العالمية ، واستمداد من وحى أوربا الجديدة ؛ ولو أننا تذرعنا مع الاتجاه الجديد بركيزة تقوم على ثقافتنا التقليدية وورائاتنا المختلفة ، إذن لكان لنا أن نقول إننا أخذنا نشيد بناء ثابتاً على أساس مستمد من فطرتنا . أما وإننا لم نعن العناية الواجبة بماضينا ، فأهملنا أمر اللغة حتى خرج المتعلمون من أبنائنا وأكثرهم يجهل القواعد الأولية من لغة العرب ؛ ونبذنا آداب العربية ، حتى نشأ الجيل الحاضر بعيداً عن استذواق الأدب العربى والوقوف على أسراره ، فان دفعتنا الأولى نحو التزود من الآداب العالمية الجديدة هى التى أحدثت ذلك الركس الشديد الذى يتجلى الآن فى عجز أدباء الشباب عن خلق صورة من الأدب فيها من قوة الحياة ما يجعلها خليقة بان تصبح عنوانا على روح العصر الذى نعيش فيه

على أننا لا يجب أن ننسى فى هذا البحث أن نشير إلى علاقة الآداب من الناحية العلمية بطبيعة الأرض والاقليم والمناخ من حيث أنها بيئة طبيعية ، كما أننا لم ننس أن نشير إلى اللغة والآداب القديمة والتاريخ والأساطير والحالات الاجتماعية من حيث أنها بيئة عقلية . أما العلاقة بين البيئتين فبينة لا سبيل إلى انكارها ، أو نكون قد أنكرنا أخص العلاقات التى تفرضها الطبيعة فرضاً على الأحياء وتصبغ بها طبائعهم وأخلاقهم وميولهم وأخيلتهم ، وعلى الجملة جماع مافيهم من الصفات العقلية والنفسية . وإلى جانب هذا ينبغى لنا أن نضع فى ميزان الحكم والتقدير عند النظر فى مثل هذه العلاقات أن الآداب التى أنشأتها شعوب قديمة إنما هى بنت البيئة وربيبة الوسط ، بل إنها خلاصة الطبع وعصارة النفس ؛ وإنما تتشكل هذه الآداب بمقتضيات العصور ، وتتكيف بحكم ما يستجمع العقل من مختلف التصورات . أما الروح التى تظهر متجلية فى هذه الآداب ، فذلك ما لا سلطان